المثقف ضد المثقف

(قراءات في أزمة المثقف العربي: الجابري–أركون–إدوارد سعيد)

العايب ربيع

جامعة قاصدي مرباح _ورقلة

تاريخ الاستلام:2020/09/22 تاريخ القبول:2020/10/12 تاريخ النشر: 2020/03/31

الملخص باللغة العربية:

في القرن الأخير حدث انفصام كبير في العلاقة بين المثقفين العرب وشعوبهم، ما أدى إلى وقوع المثقف العربي المعاصر في أزمة فعلية، أسالت الحبر الكثير، فسارع العديد من المفكرين والباحثين، إلى تشخيص هذه الأزمة والبحث في مسبباتها القريبة منها والبعيدة، فتنوعت الطروحات والرؤى، وتعددت المنظوريات المعرفية والمقاربات النقدية لكل باحث عن الحقيقة، أملا في تشخيص الداء، والكشف عن الدواء لتطبيب الخلل الثقافي والفكري الذي لحق بحاملي لواء الثقافة والمعرفة في الوطن العربي، منهم من أرجع الأزمة، إلى أسباب خارجية وفوقية تتجاوز إرادة المثقف وبعيدة عن نطاق تأثيره، ومنهم من قعّد للمسبب الذاتي النابع عن عقلية المثقف وتركيبته الذهنية والمعرفية، أي جعله طرفا فاعلا في معادلة الأزمة، من هنا ارتأينا أن نُسهم في مقاربة هذه المعضلة الثقافية التي ألمت بنخبنا العربية، من خلال التعريج على آراء مفكرين عرب نستلهم منهم، محاولات الكشف عن الخلل الحاصل في منظومة الأفكار والقيم لدى فكر مثقفينا وممارساتهم، وتخلّيهم عن المهام المنوطة بهم، التنويرية، والتوعوية، والتثقيفية، والتحررية...، ولهذا الهدف رصدنا قراءات كل من: "محمد عابد الجابري"، "ادوارد سعيد" و"محمد أركون"، لأزمة المثقف العربي.

الكلمات المفتاحية: أزمة–المثقف–العربي–الثقافة–الوطن العربي–الجابري–أركون–إدوارد سعيد.

Abstract:

In the last century, there was a great schism in the relationship between Arab intellectuals and their peoples, which led to a contemporary Arab intellectual in a real crisis. There were many cognitive theorists and critical approaches for each truth researcher, hoping to diagnose the disease, The release of the medicine to address the cultural and intellectual imbalance that befell the people of the Arab world, including those who attributed the crisis to external and superhuman causes that transcend the will of the cultured and far from the scope of its influence, including a priest for the self-cause stemming from the intellectual mentality and its intellectual and cognitive structure, means making it an effective party in the crisis equation, This is why we wanted to contribute to this cultural dilemma that befell our Arab elite, by making the views of Arab thinkers inspired by them, attempts to reveal the imbalance in the system of ideas and values in the thinking and practices of our intellectuals, and their abandonment of their tasks, development, education, and liberalism... this is why we have read the readings of: Mohamed Abed Al Jabri, Edward said and Mohamed Arkun, for the crises of the Arab intellectual.

Keywords: The intellectual, the Arab world, crisis, culture, Arab world

مقدمة:

إن المتتبع لمنحى دور المثقف في الوطن العربي، يلحظ ذلك التصاعد الحاصل لمعامل التأثير، أثناء الفترة الاستعمارية، حيث أُعتبر المثقف أداة فاعلة، في تحريك المجتمع نحو أهداف مثلى وغايات سامية، مست جميع الجوانب الحياتية: الدينية، الأخلاقية، الثقافية والاجتماعية...،فساهم في تخليص الأمة العربية من سيطرت الفكر التغريبي الإدماجي، الهادم لأسس ومقومات الأمة، وأُعتبر بذلك المثقفون، العقل المفكر الذي يستوحي منه الشعب نقطة انطلاقه نحو التقدم، فكانت مشاركتهم فاعلة في الحياة الاجتماعية والوطنية نتلمس أثرها في الحركة الوطنية والاتجاه الإصلاحي العربي المتشبع بالقيم الإسلامية. لكن بعد انجلاء المستعمر ما فتئ أن أخد منحنى دور المثقف في الانخفاض، وبدأ المثقف يفقد تدريجيا منزلته الريادية، ليؤول اليوم إلى وضع متدنٍ إلى حد كبير، أرجعه بعض الدارسين إلى سعي المثقفين إلى تحقيق أغراضهم الشخصية الآنية والبحث عن الشهرة، ولو على حساب تغييب الحقائق وتزييفها. فانعزل بذلك المثقف عن المجتمع وظل بعيدا عنه، الأمر الذي أوقعه في أزمة فعلية، أفقدته مشروعيته وشككت في مصداقيته أمام عامة الناس، لتصبح هذه الأزمة محط نظر ومساءلة؛ الهدف منها ليس فقط تعيين مكانة ودور المثقف في المجتمع بقدر ما هي إعادة موضعته كذات فاعلة فيه. مما أدى بالعديد من المفكرين والباحثين العرب إلى مقاربة هذه الأزمة، وتصور حلول لها كل من منظوره الخاص، ليبرز من بين هؤلاء قراءات، الجابري وأركون وإدوارد سعيد وعلي حرب وغيرهم، فما هي أهم الطروحات التي أبداها هؤلاء؟ كيف كان تصورهم لهذه الأزمة؟ وما هي أسبابها الرئيسية في نظرهم؟.

أولا: محمد عابد الجابري، المحنة والنكبة بداية الأزمة:

يعد المفكر المغربي "محمد عابد الجابري"، أحد أبرز المفكرين العرب، الذين بحثوا في مشكلة الثقافة والمثقفين في الوطن العربي والإسلامي، فكانت له عدة كتب في هذا المجال

من بينها: "المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد"، "المسألة الثقافية"، "التراث والحداثة"...، يتجسد لنا تصور "الجابري" عن أزمة المثقفين العرب، في كتابه: "المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد"، إذ يتساءل في مطلع الكتاب، عن مفهوم المثقف فيلحظ عدم وجود مرجعية لهذا المفهوم في الثقافة العربية، ومن ثمة يحاول بناء تلك المرجعية عن طريق التأصيل الثقافي للمفاهيم الحديثة. بعد ذلك يحيل الجابري القارئ، إلى المثقفين في القرون الوسطى الأوروبية، وكذا سلطة العلم العربي في أوروبا، وظهور المثقفين في الإسلام، ثم ينتهي إلى نتيجة وهي ضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي، لهذا أورد الجابري السؤال الآتي: هل يصح أن نطلق اسم المثقف على منتجي الأفكار في عصورنا الوسطى؟ إذا ما عرفنا الملابسات النظرية والتاريخية، التي رافقت تشكل التسمية في تاريخ الغرب؟" (**اللطيف، 1999، صفحة 143**)، فكان الجواب أن مصطلح المثقف مصطلح غربي الأصل، أُدرج في الثقافة العربية، للتعبير عن العاملين في ميدان الفكر والثقافة من النخب العربية.

فضلا عن ذلك، توصل "الجابري" بعد مراجعة تاريخ العرب والمسلمين، إلى تحديد خصائص وصفات المثقف في العصر الإسلامي الوسيط من فلاسفة الإسلام الذين عرفتهم الحضارة العربية الإسلامية، وفق السمات التالية: "المثقف يعمل بفكره، وهو ينتمي إلى الخاصة، كما ينتمي إلى الوسط الحضاري، مرجعيته المركزية تتحدد في العقيدة، يفكر من خلالها، ويحتمي بها، إضافة إلى كل ذلك، يستطيع تحويل العقيدة إلى رأي. إنه في نهاية التحليل، يمارس العمل السياسي، والعمل الفكري، بتوسط العقيدة" (**اللطيف، 1999، صفحة 145**). فحوى هذا أن المثقفين في العصر الإسلامي الوسيط، الذين يمثلون صفوة المجتمع ونخبته، وخاصة الناس، يتشكل غالبيتهم من الحضر أو المدينة، وفكرهم يستمد مرجعيته من العقيدة الدينية، فهي بالنسبة إليهم المنفذ الذي ينفذون من خلاله إلى مشكلات

وقضايا مجتمعهم ومختلف السلوكيات التي تطبعها. إذاك أضحت هي منطلقهم في التفكير، ومصدر آرائهم السياسية والفكرية والأدبية فشمل البحث شرائح مختلفة من الكتاب والفلاسفة والشعراء والنقاد والمؤرخين والمفسرين والأصوليين والمتصوفة، كابن المقفع وابن رشد وابن الهيثم وابن حنبل والغزالي وابن عربي والمتنبي والجاحظ...وغيرهم.

يرى الجابري أن المثقف لابد أن يظهر نتيجة خلاف، سواء أكان خلاف ديني أو سياسي أو فلسفي. وهو يمكن ما يسميه ‘‘متكلماً’’ أي ذا رأي، لذلك يستعرض الجابري الخلافات الكبرى في الحضارة العربية الإسلامية، التي أفرزت فيما بعد مثقفين، كالخلاف في كقضية مقتل عثمان، والإمامة، وقضية الجَبْر، وقضية الإيمان زيادته أو نقصانه، قضية خلق القرآن، وتكفير مرتكب الكبيرة...وغيره، بناء عليه، يرى "الجابري" أنه يمكننا تسمية كل من "أحمد بن حنبل"، و"ابن رشد" بالمثقفيّنِ. وما يستوقفنا هنا، هو ما تعرض له الرجلان من ظلم واضطهاد، من قبل السلطة الدينية أو السلطة السياسية، اللتان خلقتا أزمة جعلت التاريخ الإسلامي ينطوي على محنة فكرية وثقافية عصفت بأدوار أولئك المثقفين ، "فمحنة الفقيه أحمد ابن حنبل، والنكبة التي تعرض لها الفيلسوف ابن رشد، تطرحان معا إشكاليات هامة في تاريخ الفكر الإسلامي...، هي إشكالية الدين والسياسة" (**اللطيف، 1999، صفحة 148**)، من ذاك يستعرض الجابري محنة الإمام ابن حنبل وقضية خلق القرآن، ويحللها بمنهجية واستقصاء علمي محاولاً كشف اللغز عن ظهور هذه المحنة، فيستنتج بالشواهد التاريخية والتحليل المنطقي أنها لم تكن قضية دينية، بل سياسية كذلك، وبالنسبة لقضية ابن رشد وخلافه مع "أبي يعقوب المنصور"، حاول الجابري كشف السر الذي أدى إلى هذا الخلاف، مبيناً أنه أيضًا لم يكن دينياً، بل سياسياً.

هكذا إذن، نلفت النظر إلى أن أزمة المثقفين العرب حسب" الجابري"، ترجع إلى العصر الوسيط، إذ يشكل جدل الديني والسياسي، أحد أبرز الأسباب والعوائق الكبرى،

لما عاناه مثقفو تلك الحقبة من ظلم واضطهاد، فقد أُحرقت كتبهم، وكُممت أفواههم وصُودرت حريتهم.

أما حاضرا، يرتبط مفهوم المثقف بالثقافة، فالمثقف هو من يفكر في إطار ثقافة معينة، وهذا الإطار هو الذي يحدد جنسيته الثقافية، يقول "**الجابري**": "هناك في العصر الحاضر قاعدة عرفية، تتحدد بموجبها الجنسية الثقافية لكل مثقف، هذه القاعدة تقتضي بأن المثقف لا ينسب إلى ثقافة معينة، إلا إذا كان يفكر داخلها، والتفكير داخل ثقافة معينة، لا يعني التفكير في قضاياها، بل التفكير بواسطتها" (**عرار، 2016، صفحة الثقافة والمثقفون والحضارة**) وعلى هذا الأساس، فإنه إذا صادفت المثقف مشكلة ما، أعاقته عن تأدية دوره، فإن الخلل كامن فيه وسبب ذلك، المنظومة الثقافية التي يستلهم منها فكره فينظر من خلالها، وجلي بالذكر أن "الجابري" نظر إلى أزمة المثقف العربي، من منظار مشكلة الأصالة والحداثة، فأعتبر أن المشكلة، تبدأ من وعي المثقف بالانشطار الذي يعيشه داخل نفسه، نتيجة تصادم سلطتين مرجعيتين في فكره، هذه الازدواجية من شأنها، أن تخلق حالة من التوتر والاضطراب الفكري داخل المثقف، وما يؤكد هذا في نظر "الجابري"، أن المثقف ثقافة عربية محضة والمثقف ثقافة أوروبية خالصة، لا يشعر أي منهما بهذه الإشكالية، أو على الأقل لا تقلقهما، بحجم القلق الذي يعاني منه المثقف مزدوج الثقافة (**وآخرون، 1984، صفحة 56**). ويُعبر "الجابري" عن هذه الحالة بعبارة "**تداخل الأزمنة الثقافية**" في فكر المثقف العربي، وهذا التداخل على صعيدين، أحدهما معرفي والآخر إيديولوجي، فعلى صعيد الأول، ما زال مثقفُنا منذ العصر الأموي، يستهلك معارف قديمة من التراث، ويتداولها على أنها جديدة، أيا كان مصدرها، سواء كان عربيا أو غربيا، أما على الصعيد الإيديولوجي فمازال يعيش صراعا داخليا – في فكره – بين ماضيه وحاضره (**الجابري، 1985، صفحة 45**). وقد أدى تداخل الأزمنة الثقافية في فكر المثقف العربي حسب

"الجابري"، إلى بروز ظاهرة مقلقة في الفكر العربي المعاصر، هي القفز على صعيد المواقف حول القضايا الرئيسية في الفكر العربي، إذ نجد أن المثقفين يهْجُرون أو يرْحَلون باستمرار، من مواقفهم إزاء قضايا عديدة كقضية: "الوحدة"، "الاشتراكية"، "الديمقراطية"، "الإسلام"، "العروبة"، " العلمانية"، ولا نجدهم يرسون على مواقف واحدة وهذه الظاهرة سماها "الجابري" **« ظاهرة المثقفين الرحـل»** (**الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، 1997، صفحة 40**)، نأخذ مثالا في سياق توضيح المفهوم نستدل من خلاله على كيفية تداول مفهوم "الديمقراطية" في أوساط النخب العربية المثقفة، حيث يتحدد هذا المفهوم كغيره من المفاهيم النهضوية في الفكر العربي الحديث و المعاصر، انطلاقا من منظومتين مرجعيتين: المرجعية التراثية والمرجعية النهضوية، الفئة الأولى أو من يُطلق عليهم بالسلفيين، بحثوا في التراث الإسلامي القديم، عمّا يوازي الديمقراطية وأصبحت بذلك تعني الشورى، و يمثل هذه الفئة النخبة التقليدية، أما الفئة الثانية ففهمت الديمقراطية على أنها ذلك التطور الذي وصلت إليه أوروبا من خلال النضال من أجلها —الديمقراطية– أكثر من ثلاث قرون، و يمثل هذه الفئة النخبة العصرية (**الجابري، تكوين العقل العربي، 1985، صفحة 45**).

من هنا، يرى "الجابري" أن المفاهيم المتداولة في الفكر العربي المعاصر، ليست ثابتة على معنى واحد، وإنما هي خاضعة لإيديولوجيات النخب المثقفة في العالم العربي، فكل نخبة تحاول صياغة المفاهيم، انطلاقا من مرجعيتها الثقافية التي تتأثر بها سواء كانت تراثية أو نهضوية، و هذا ما يسميه "الجابري" بـ **« السفر عبر الزمن الثقافي العربي»** (**الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، 1997، صفحة 73**) أي الانتقال من ثقافة إلى ثقافة أخرى، ومن هذا الإطار، يضع "الجابري" يده على سبب آخر، من أسباب أزمة المثقفين العرب، وهو أن كل نخبة عبّرت عن جزء واحد ووحيد فقط من الواقع العربي وأهملت الجزء الآخر وتجاهلته، يقول في هذا الصدد: "إن النخبة العصرية عبّرت عن تطلعات وفكر فئة

معينة من المجتمع، وأهملت في المقابل ما يسمى بالنخبة التقليدية، وما تستقطبه من فئات عريضة من المجتمع" (**الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، 1997**) فغياب التفاعل بين المثقفين والجماهير الشعبية، جعل الهوة تتسع بينهما، حتى أصبح المثقف معزولا عن الواقع الذي يعيش فيه، وبالتالي أصبح منطلقه في التغير إيديولوجيا وليس واقعيا. وهكذا فالمطلوب هو، قيام كتلة تاريخية تنبني على المصلحة الموضوعية الواحدة، تحرك جميع التيارات التي تنجح في التأثير على الجماهير الشعبية وهي مطالبة صريحة بالتخلي عن الإيديولوجيات المتعددة، والسعي المتواصل لخدمة المصلحة العامة بكل موضوعية، قصد استمالة الجماهير الشعبية.

وفي نقده للعقل العربي، يرى "الجابري"، أن غياب النقد أو الروح النقدية في نشاط العقل العربي المعاصر، يجعل المثقفين اليوم يتوهمون اكتساب الحقيقة، على عكس أجدادهم أي العلماء القدامى، الذين إذا أدلوا برأي ختموه بالقول "الله اعلم" أو "المسألة فيها قولان"، أما اليوم، فإن التعقيب الذي حل محل تواضع العلماء القدامى، يكتسي صيغة التأكيد كالقول: "هذا أعلم"، وهذا نوع من الطوباوية التي تفشت في ظل غياب النقد الذاتي، وعدم الاعتراف بالخطأ (**الجابري، تكوين العقل العربي، 1985، صفحة 46،45**). لعل مرحلة التطورات التي يعيشها العالم العربي ــ وهي مرحلة انتقالية من حالة الركود والجمود التي كان يعيشها في ظل الهيمنة الاستعمارية إلى حالة التطور والازدهار، ودخوله ضمن النظام العالمي الجديد، القائم على العولمة والانفتاح على الآخرــ جعلت من مثقفيه، يعيشون ازدواجية ثقافية من الناحية المعرفية، أثرت سلبا على إنتاجهم الفكري، ومشاريعهم النهضوية، وتأثرا بالوضع الاجتماعي، تولدت إيديولوجيات مختلفة، وهما جانبا الإشكالية التي وقع فيها المثقفون، ويدلل "الجابري" على ذلك بأن "هناك إذا جانبان في الإشكالية التي نحن بصددها، جانب إيديولوجي يعكس الوضع الاجتماعي وجانب معرفي يعكس الازدواجية الثقافية،

التي تفرضها علينا مرحلة التطور التي نجتازها" **(وآخرون، 1984، صفحة 56)**، يُفهم من هذا الطرح، أن مرحلة التطور هذه حتى وإن كانت شاقة وصعبة، فهي لا تمثل حتمية ثقافية، إذ المطلوب هو تحليل أسسها الإيديولوجية والمعرفية، لإزالة الانفعالات الّلاعقلانية الصادرة عنها، وبالتالي فتح الطريق لتجاوزها.

وعموما، نحاول أن نُجمل مقاربة "محمد عابد الجابري" حول أزمة المثقفين العرب المعاصرين، في النقاط التالية:

- ❖ أسباب الأزمة خارجي بالدرجة الأولى، يتمثل في مشكلة السلطة الدينية والسياسية، وهي قائمة منذ العصر الوسيط حتى أيامنا هذه.
- ❖ سبب المشكلة ثقافي في الأساس، ناتج عن تداخل الأزمنة الثقافية في فكر المثقف العربي، إذّاك نجد المثقف الواحد يفكر بمرجعيتين ثقافيتين تراثية ونهضوية في آن معا.
- ❖ غياب التفاعل والحوار بين النخب المثقفة والمجتمع، يزيد من حجم المأزق الذي وقع فيه المثقف.
- ❖ غياب الروح النقدية للعقل العربي، تنتج عنه أوهام طوباوية في الاعتقاد بمعرفة الحقيقة.
- ❖ المرحلة الانتقالية التي يعيشها العالم العربي على جميع المستويات، خاصة الثقافية منها، لها جانب إيجابي خاصة في زيادة وعينا بالمشكلة قصد الخروج منها.

ثانيا: إدوار سعيد، والمثقف الكوني:

يُعتبر إدوار سعيد (1935–2003) من بين أهم المفكرين الذين أَولوا عناية بالغة الأهمية، بالثقافة عامة، وبالمثقف بصفة خاصة، بإعتباره ممثلا لها ورافعا للوائها، خاصة عندما التفّت حوله التهم والشبهات، وكثر الحديث عنه، وفي خضم هذا الحديث، كانت المحاولة

جارية لرد الاعتبار لهذا المثقف، كونه الوحيد القادر على قول كلمة الحق في وجه الباطل، ومحاربة الجهل ورفعه.

نستكنه مقاربة ادوارد سعيد لازمة المثقف الخانقة، انطلاقا من بيان مفهوم المثقف لديه، فمن هم المثقفون عند "إدوار سعيد"؟. الجواب هو أنهم: " شخصيات تمارس نشاطا جمهوريا، لا يخضع للتنبؤ، ولا يكون تحت ضغط بعض الشعارات، ولا يتماشى مع خط الأحزاب التقليدية ولا ينتج عن التعصب الجامد..." (**شاهين، 2005، صفحة 102**). المثقف حسب هذا القول هو، وجوب التحلي بصفة جوهرية وهي الأمانة والوفاء بالدرجة الأولى، خاصة تجاه الحقائق التي يمتلكها فلا يحاول تغييرها أو تشويهها أو تحريفها، وأن يستخدمها بكل موضوعية، خاصة نحو تلك القضايا التي تتعلق بالأوضاع المزرية، من اضطهاد وظلم وجور على **الإنسانية قاطبة**، أي **المثقف الكوني**، حتى ولو كانت تناقض أو تعارض توجهه الفكري أو الحزبي أو الإيديولوجي، ليكون بذلك قد حفظ الأمانة وقال الحق حتى على نفسه، لأن المثقف الحق هو صاحب الرأي الواحد، الذي يدافع عنه دونما خوف أو تردد، وفي ذلك يقول " إدوار سعيد": "إن المثقف من وُهب ملكة عقلية لتوضيح رسالة أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفة... (**جرار، صفحة 145**) . إذن فالمثقف هو ذلك الفرد الذي يمثل توجها ما، بحيث يعبر عنه بجلاء ووضوح لجمهوره، بدون أي تلفيق، مستعدا لتحمل مسؤولية أقواله، متحديا كل الصعاب والعوائق التي يمكن أن تعترض طريقه، أو تقف في وجهه، ومن هنا، يتبين لنا مدى صعوبة الدور المنوط به، لأنه من خلال أدائه لهذا الدور جيدا، يتجنب الوقوع في خطر اختفاء صورته، أو احتجاب مكانته، باعتباره ذلك الشخص القادر على مواجهة ما يجري في المجتمع مجرى الصواب دون تردد أو خوف، ومنه لا حكومة ولا شركة يمكن أن تستقطبه (**سعيد، 2006، الصفحات 43–44**)، فإذا كان المثقف العربي، يتحلى بروح المواجهة و نخوة الدفاع عن الهوية الوطنية، فهل فعلا،

تمكن من أداء دوره كما ينبغي، بالحفاظ على ثقافة شعبه، و دفعه نحو التقدم؟ أم أن هناك عوائق أخرى حالت دون ذلك؟.

يعترف "إدوارد سعيد" بأن للمثقف دورا كبير تجاه مجتمعه، لأنه الوحيد القادر على رفع الظلم عنه، وحل مشاكله، خاصة منها تلك المتعلقة بتطوره و تحضره، ولكن الحلول التي قدمها هذا المثقف، زادت المجتمع تخلفا و تأخرا، وهنا نتساءل عن السبب الذي آل إليه تراجع دور المثقف، يرجع "إدوارد سعيد" ذلك، إلى تأثر المثقف العربي بالغرب، لأن الأفكار والمشاريع التي جاء بها غريبة عن ثقافتنا العربية، فهي امبريالية في أصلها، طبقتها الدول الغربية في مجتمعاتها، وكانت ناجحة بدليل التطور والتقدم الذي تشهده؛ في أيامنا هذه، ومن أجل بلوغ هذا التقدم، حاول مثقفونا أن يجربوا تلك المشاريع، بإسقاطها على مجتمعاتنا، ولا ننكر أن نيتهم هنا كانت حسنة، لكنهم في الوقت نفسه، لم يكونوا على وعي تام بما ستجره عليهم هذه المشاريع من انعكاسات سلبية، وأضرار جسيمة ، وحينما تنبه مثقفونا لهذا الخطر، حاولوا التراجع عنها، إلا أنهم لم يستطيعوا، لأنها أفكار متأصلة في أذهانهم، استوردوها من الغرب جراء انبهارهم الكبير بالرقي والتقدم الذي بلغته الحضارة الغربية.

يرد" إدوارد سعيد" هذا الفشل إلى جهل المثقف العربي بطبيعة مجتمعه من جهة، وهجانة ثقافته بثقافة الغرب من جهة أخرى، ما أدى إلى عجزه عن الفصل بينهما، واعتبرهما ثقافة واحدة، فعلى مثقفينا حسب إدوارد سعيد "أن يعترفوا بحقيقة انشطارهم اللاإرادي بين مصدريين معرفيين، الموروث الشرقي والمكتسب الغربي" (**نجدي، 2005، صفحة 194**)؛ وما هذه المقولة، إلا إثبات لوجود ازدواجية ثقافية، كان انعكاسها أن طابق المثقف مشاريع الغرب على العرب، حيث استورد لنا تلك الأفكار والمشاريع النهضوية جاهزة دون دراستها، والتمعن في مضامينها، علاوة على ذلك، وما زاد الأمر سوء هو جهلهم بالتقنيات

والمنهجيات الصحيحة والسليمة، التي يمكن من خلالها تطبيق هذه المشاريع بنجاح (كالديمقراطية والاشتراكية، والليبرالية... .) وما عقّد الأزمة أكثر، هو عدم اعترافهم بأنهم تأثروا بالغرب، و ظنوا أنهم أصحاب هذه المشاريع –الفاشلة– ومؤسسوها ليثبتوا ذلك على أنفسهم، فراحوا ينتقدون ثقافة الغرب ومدنيتهم، بالرغم من أن معظمهم يتمنون الوصول إليها، ودليل ذلك أنهم جعلوها الطموح الأسمى الذي يسعون جاهدين للوصول إليه بعين حاسدة ومتشوقة (**نجدي، 2005**). وبالتالي كان نقد مثقفينا لحضارة أوروبا، بمثابة القشرة التي تزحلقوا عليها، فأختل توازنهم ولم يعرفوا بعدها إلى الاستقرار سبيلا، ويكمن هذا الاختلال في التناقض الذي يعيشه المثقف – أي دعوته لتقليد الغرب، ونقده له في الوقت نفسه– من جهة، ومن جهة أخرى نجد السلطة وما تمارسه من اعتداء وظلم في حقه وحق مجتمعه، ومحاولة إسكات كل من يقف في وجهها دائما، مستخدمة في ذلك شتى الوسائل المباحة وغير المباحة، هذا ما زرع الخوف في نفوس المثقفين، فما كان منهم إلا أن تنازلوا عن سلطتهم الأخلاقية، ويبين "إدوارد سعيد" ذلك حين قال إن: "مشكلة مثقفي هذه الأيام، أنهم تنازلوا عن سلطاتهم الأخلاقية لمصلحة ما يسميه بتنظيم العواطف الجماعية، مثل الروح الطائفية والمشاعر الجماهيرية والعدوان القومي والمصالح الطبقية" (واليا، 2006، الصفحات 20-21)، و من جراء هذا الخوف، أصبح المثقف لا يؤمن بما يحمل من أفكار، وزالت ثقته في نفسه، هذا ما جعله يتخلى عن سلطته الأخلاقية، أي لم يعد محتاجا لإرضاء نفسه بقدر ما يريد إرضاء أطراف أخرى، وهذا ما يسمى ب**موت الضمير**، و مؤدى هذا الكلام هو سقوط المثقف، لأنه لم يعد يكترث بما يجري حوله، وأنه راض بكل الأوضاع –سلبية كانت أم إيجابية– ولكن، يقف "إدوارد سعيد" هنا وقفة يقول فيها: "الأهم بالنسبة للمثقف، هو أن يكون في حالة معارضة شبه دائمة للوضع الراهن، فالمثقف شخص قادر على قول الحق في مواجهة السلطة، كفرد قاس وبليغ –في الآن نفسه– وشجاع إلى درجة لا تصدق، وغاضب لا يعرف قوة دنيوية تكون كبيرة ومهيبة جدا، بحيث لا يمكن انتقادها

وتوبيخها على سلوكها" (**واليا، 2006، الصفحات 20-21**)، وهذا ما لم يقم به المثقف، وما أراد " إدوارد سعيد" قوله وتبليغه للمثقفين، هو أن يتخطوا ويتجاوزوا حد الخوف من السلطة، لأن الأهم بالنسبة لهم، أن يكونوا في موقف المعارضة الدائمة، خاصة وأنهم هم المسؤولون أمام جماهيرهم باعتبارهم حاملي الحقيقة والرسالة التي يجب أن يؤدوها، و ما داموا مسؤولين أمام جمهورهم، فلا داعي لخوفهم هذا، من جهة -كسبهم للجمهور- وأنهم يتحلون كما يقول " إدوارد سعيد" – بمجموعة من الصفات البطولية النادرة كالقسوة والبلاغة والشجاعة والغضب، من جهة أخرى، كل هذه الصفات تجعلهم يكتسبون هيبة وقوة، لا يمكن مواجهتها أو انتقادها أو محاسبتها على تصرفاتها، لا من طرف السلطة، ولا من أطراف أخرى.

وحسب "إدوارد سعيد" يتزامن ظهور المشكلتين السالفتي الذكر وهما: التناقض الذي يعيشه المثقف، والخوف من السلطة، مع ظهور نموذج **المثقف المنفي**، وهو ذلك " المثقف الذي لا يفارقه الشعور بالغربة والعزلة والهامشية، وهذا الشعور بالغربة، لا يقتصر على الذين انقطعوا عن أوطانهم، أو أُكرهوا على العيش بعيدا عن ديارهم، وإنما يشمل كل الذين لا يعيشون الانتماء التام إلى مجتمعهم، أو الذين لا يقدرون، بل لا يريدون التكيف مع أوضاعهم وظروفهم، سواء كانوا خارج أوطانهم أو داخلها" (**واليا، 2006، صفحة 21**). ومعنى هذا التناقض والخوف الذي عاشهما المثقف أنهما نابعان من شعوره بالوحدة والهامشية، وأصبح بالتالي، يحس أن وجوده كعدمه، لذلك كان يخاف من أي محاولة يقوم بها في سبيل النهوض والتقدم بشعبه، بمعنى أنه يريد النهوض بمجتمعه وأمته، وعندما يخاف سيتراجع. هذا ما أوقعه في التناقض، وبالتالي نجم عنه فقدان الحرية والاستقلالية تجاه الدولة وسلطتها أو تجاه المجتمع وتقاليده، "ولكن المثقف إذ يؤكد على هامشيته أو ممارسته لعزلته وتوحده، فهو يتخلى عن مهمته الرسولية، كمدافع عن الحرية والقضايا العامة، لكي يغدو

مجرد كاتب يعبر عن تجاربه ومعايشاته" (**حرب، 2004، صفحة 46**). هنا تكمن المفارقة؛ فالمثقف تزول هيبته وفعاليته كلما انخرط أكثر في المجتمع، وانغمس فيه، وكان لصيقا به، وهذا ما ذهب إليه "**غرامشي**". في المقابل، ترتفع وتبرز أهمية المثقف كلما مارس تمايزه وتفرده (**حرب، 2004، صفحة 46**)، هذا ما ذهب إليه "**جوليان بندا Julian Benda**" -(1867-1956).فيلسوف ومفكر فرنسي ليبرالي-، من هنا، طرح " إدوارد سعيد" الإشكالية التالية: "**كيف يحافظ المثقف على فعاليته واستقلاليته في الوقت الذي لا يكون فيه طوباويا، ولا ينغمس في واقعه كل الانغماس**"؟.

وفعلا تمكن "إدوارد سعيد" من تشخيص الأزمة، بتحليل المشكلة واستبيان العوائق، التي تحول بالمثقف دون ممارسة وأداء مهامه، كمدافع عن حرية التعبير، أو كممثل للمقهورين في مواجهة السلطات وأنظمة الاستغلال والظلم، مركّزا في هذه الأزمة، على أنها أزمة قائمة في أساسها بين المثقف والسلطة، هذا ما جعل المفكر "علي حرب"، يوَجّه له انتقادا، باعتباره بقي أسيرا للثنائية القديمة—ثنائية المثقف والسلطة- (**حرب، 2004، صفحة 47**) في حين أنه كان بالإمكان تجاوزها وإعطاء طرح جديد لتلك العلاقة، فيما يتعلق بهذه الأزمة.

ثالثا: محمد أركون، ومأزق المثقف المتخصص:

إلى جانب التصورين السابقين، نستحضر مقاربة " محمد أركون" الذي يُعد أحد أبرز المفكرين الذين أسهموا في تناول أزمة المثقفين العرب المعاصرين، ووضع حسب تصوره المهام المنوطة بالمثقف العربي عموما والمسلم خصوصا، وحدد وفقها الأسباب التي كانت عائقا أمام أدائه الفعال لدوره الطبيعي الذي وجد من أجله، و قبل الخوض في تفاصيل هذه المهام، يجدر بنا التطرق إلى مفهوم "أركون" للمثقف، فيذهب إلى أنه: "ذلك الرجل الذي يتحلى بروح مستقلة، مُحبة للاستكشاف والتحري، وذو نزعة نقدية واحتجاجية تشتغل

بإسم حقوق الروح والفكر فقط" (**أركون، 1998، صفحة 07**)، من هذا التعريف نستكشف سمات المثقف الواجب التحلي بها حسب "أركون"، والتي تتمثل في استقلالية الرأي، والقدرة النقدية، والعمل على الذود عن الشؤون التي تمس المسائل الدينية والفكرية، كما نعثر لـ: "أركون" على تعريف أخر خص به فئة رجال الدين "كونهم مثقفون بامتياز لأنهم يكرسون كل جهودهم وانتباههم لتفسير معنى الوحي ولتحديد المعاني الدقيقة للنصوص المقدسة، ولاستنباط الأحكام انطلاقا من هذه المعاني" (**أركون، 1998، صفحة 06**).

ويذهب "هاشم صالح" بأن "أركون" يقصد من وراء هذا القول أن المثقف لا يكتفي بالعيش، وإنما يتجاوزه للبحث عن معنى العيش والوجود، وأنه بإمكانه الانفصال والابتعاد عن ذاته ثم عن الوجود، ليسعى إلى الفهم والمراقبة، بخلاف عامة الناس الذين لا همّ لهم سوى الاكتفاء بالعيش والانخراط فيه دون أي فهم أو مُساءلة، ربما لأن ذلك يفقدهم الإحساس بنعمة العيش من جراء المشاكل التي لا قدرة لهم حتى على التفكير فيها، بالإضافة إلى ذلك فإن معنى المثقف القديم والحديث، يحمل سمة الاختصاصي من حيث المهنة ليصبح بذلك خبيرا بمسألة المعنى والتفسير، أي تفسير كل من النصوص والأشياء والظواهر... (**أركون، 1998، صفحة 31**)، من هذا أن المهام الملقاة على عاتق المثقف العربي بإعتبار اختصاصه الحرفي، الذي لا يعرف شيئا خارجا عن دائرة مجاله، فلا تهمه لا قضايا المجتمع ولا السياسة وهنا يكمن الإشكال: **هل ينبغي على المثقف أن يكون كذلك، أي متخصصا؟**، يجيب "أركون" بـ "لا" مبررا رفضه –فكرة المثقف المتخصص– بأن المثقف أولا وقبل كل شيء ، مسؤول عن مجتمعه، وليس مجرد متخصص في مجال من مجالات الفكر والمعرفة، فالإضافة إلى التخصص، يجب عليه أن يندمج وينخرط في المشاكل التي تتربص بمجتمعه، خاصة إذا كان مجتمعه يعاني من أزمات ونخص بالذكر هنا وضعية المجتمعات العربية والإسلامية المتأزمة، القابعة على أطراف الحضارة وهامش التقدمية العالمية.

إذن كيف تصور "أركون" الأزمة التي وقع فيها المثقف العربي والمسلم؟، يجيب: أن المثقفين العرب (من أدباء وباحثين وأساتذة وكتاب مقالات وشعراء وروائيين ...) يتزايدون اليوم أكثر لحسن الحظ، ولكنهم معزولون وواقعون بين **"فكي كماشة"** إذا جاز التعبير، فمن جهة هناك النخب السياسية التي تشتبه بهم دائما، بل وتزدريهم أحيانا، و من جهة أخرى يوجد الجمهور العام، الذي لم يتم تحضيره بالشكل اللّازم والكافي، من أجل استقبال النظريات الفكرية والعلمية الجديدة، ولذا فإنهم لا يستطيعون التحرر من خطاب الاتهامات المضادة، أو الدفاع عن الذات أو الخطاب الانفعالي والارتجالي المتشبع منذ زمن طويل" (**أركون**، **1998**، **صفحة 18**)، من خلال هذا نستبين معالم الأزمة التي وقع فيها المثقف العربي وعصفت به، حسب "أركون" إذ نرى أنه أرجع أسبابها إلى عاملين رئيسيين: أولهما النخب السياسية، وما تمارسه على المثقف من اتهامات خطيرة خاصة حول المهمة التي يؤديها، بحيث كانت النخب السياسية تقابلها بالازدراء وعدم الرضا والرفض لكل منتوج فكري أو ثقافي مخيب، أما ثانيهما فهو الجمهور العام، الذي لم يبلغ بعد درجة من الوعي الكافي والفهم الجيد للنظريات والمشاريع التي يقدمها المثقف، فما كان منه إلا أن يتجاهل كل منهما، هذا ما جعله يعيش نوعا من النخبوية، وسببها إما الخوف المعلن من النخب السياسية وما تمارسه من ضغوطات عليه، وإما بسبب جهله بتاريخ المعتقد الإسلامي وأصول المجتمع، لذا كانت النظريات والمشاريع التي يقدمها لا تلقى أي ترحيب من طرف الجماهير الشعبية، لأنها غريبة عنها، فالأولى بالمثقف إذن أن يتعرف على تاريخ الإسلام والمجتمعات حتى يتمكن من تقديم حلول تتلاءم وطبيعة المجتمع وعاداته وتقاليده وثقافته، "ما نتج عن ذلك منطقة شاسعة من اللاّمفكر فيه داخل الفكر العربي والإسلامي المعاصر" (**أركون**، **1998**). الأمر الذي جعل الهوة تتسع بين المثقف ومجتمعه، ما ساعد على صنع الأزمات وانعدام نظريات علمية تساهم في تطور العرب والمسلمين وتقدمهم، وهذا دلالة على تراجع دور المثقف العربي عامة والمسلم خاصة، عندما اتجها إلى التخصص الذي شغله عن مشاكل

مجتمعه، وكما ذكرنا آنفا أنه ولد لديه نوعا من النخبوية، يقول عنها "أركون" : "إن الباحث المعاصر يعزل نفسه ضمن اختصاصه الضيق ويصبح خبيرا مثله في ذلك مثل طبيب الأرياف الذي يكتفي باستقبال المرضى في عيادته دون أن يتدخل في حياة القرية التي يمارس فيها مهنته" (**أركون، 1998، صفحة 20**)، بالتالي لو نظرنا إلى الباحثين العرب والمسلمين لوجدنا تأخرا في البحث وبطئا ونواقص أشد إيلاما وحزنا، فتفاقم المشاكل على جميع الأصعدة (سياسية واجتماعية ...) كان منذ السبعينات، فكانت أكبر دليل على التراجع الواضح للإنتاج العلمي في المجال العربي والإسلامي كمًا ونوعًا (**الإسلامي، 1986، صفحة 15**)وهنا حاول "محمد أركون" أن يحدد لنا الفترة التي بدأت فيها مشكلة المثقف، وربطها بالمشاكل السياسية والاجتماعية والثقافية، هذه الأخيرة التي كانت لها الصلة الوثيقة والواضحة على أزمة المثقف، كما أُعتبرت من أهم المسائل والعوامل في تراجع دور المثقف خصوصا في إنتاج الفكر العربي والإسلامي.

يضيف "أركون" إلى نخبوية المثقف، سببا آخر يعتبر خطيرا على بنية المثقف العربي والمسلم، كان له الوقع الكبير عليه، وهو انحصار تفكير المثقف داخل "**سياج دوغماتي مغلق**"على حد تعبير "أركون"، معناه أن التفكير ليس حرا، وأن المجال الذي يسبح فيه محدودا وضيقا، يتمثل هذا "السياج الدوغماتي المغلق" في العقائد السائدة في المجتمعات العربية والإسلامية، وبما أن المثقف العربي والمسلم ينتمي إلى هذه العقائد فإنه حتما متشبع بها، وهذا ما انعكس على تفكيره، حيث أصبح تفكيره مكبلا بها لا يخرج عن نطاقها، فأصبحت بذلك "الساحة الثقافية التي يتاح فيها للعقل البشري حرية البحث عن النظر هي دوغماطيقية مغلقة، من قِبل النظرية الإسلامية للوحي" (**الإسلامي، 1986، صفحة 09**)، أي أن السبب في قيام هذا السياج الدوغماتي المغلق هو طبيعة النظرية الإسلامية، لأن المعرفة التي تصدر منها هي مجرد استنباط لغوي من النصوص أو الوحي، وليست نتاج

عمل فكري حر واجتهاد خلاق واكتشاف للواقع، وبخضوع تفكير المثقف لهذه العقائد الإيمانية المبنية على النقل، أو المعرفية الفوقية اللّدنية المتلقاة رأسا، سيبقى منغلقا على نفسه، ومثال ذلك الأصوليون الذين رسّخوا علم الأصول بممارسته الثابتة والمقننة بحزم، وبالتالي كانت نتيجة ذلك زيادة في سماكة السياج الدوغماتي، وتأصيله وتقوية انغلاقه، وكانت النتيجة حصار تفكير المثقف العربي والمسلم وانغلاقه على نفسه داخل هذا السياج. وما نفهمه أيضا أن "أركون" يرفض أن ينحصر أو يقتصر تفكير المثقف وإبداعاته في مجال ضيق ومحدود خاصة في فهمه للنصوص الدينية، لأن ذلك يفسد عمل العقل، ويجعله راكدا خاصة تجاه الأحداث الحاضرة.

مما سبق ذكره فإن "محمد أركون" قد صنف المثقفين المسلمين إلى قسمين: أولا التحديثيون المنفتحون على تأثيرات الحضارة الغربية أو الاشتراكية العلمية وهم المثقفون الليبراليون الذين حاولوا نقل وتطبيق المناهج والمشاريع الغربية على مجتمعاتهم العربية، بالقليل أو الكثير من الإستيعاب والفهم، وثانيا التقليديون الملتصقون بالقيم الإسلامية، ويرى "أركون" أن وعي المثقف الإسلامي قد ارتبط أساسا بالقرآن وعاش حالة تأويلية تطور أثناء مرحلته التاريخية الأكثر ديناميكية وإنتاجا، وهو الآن يواجه كل التوترات والأزمات المتولدة عن المجابهة المباشرة وغير المباشرة بين التراث الحي والحداثة، بسبب انقطاعه عن أصوله وقربه من الغرب الحديث، هذا القرب الذي حاول أن يشوه نظرته إلى التراث الحي ومن ثم فإن أهم المشاكل التي واجهها المثقف العربي والإسلامي حسب "أركون" تتمثل في انغلاق أفاقه الفكرية واكتشافه الهش للثقافة الغربية البرجوازية مما ساهم في اختلال توازن الوعي عنده **(صافي، 2002، صفحة 29)**.

وفي الختام نقول أن "محمد أركون" قد تمكن هو الآخر من تشخيص وتفكيك أزمة المثقفين العرب وأعطى مجموعة من الأسباب التي كانت وراء وقوعها، محاولا بذلك تحديد

المهام التي يجب على المثقف القيام بها ،ففي نظره المثقفون الجادّون هم وحدهم القادرون على تقديم الإيضاحات والتشخيصات المتعلقة بالآليات والأسباب المخفية (**أركون، 1998، صفحة 27**)،التي تؤدي إلى إغراق المجتمع العربي المسلم في المشاكل، وكل هذا يتطلب منهم التشمير على سواعدهم والانخراط بشكل نزيه من أجل تشخيص الأزمات، وإيجاد حلول لها، بالإضافة إلى التحلي بالأخلاقيات الصارمة التي لا هوادة فيها، قصد بلوغ الهدف المنشود وهو الدفع بالدول العربية نحو الرقي في جميع المجالات فكرية كانت أو ثقافية أو اجتماعية أو سياسية.

خاتمة:

خلاصة الورقة أن هناك اختلافا في تشخيص كل مفكر عربي لأزمة المثقف، نجمله في ما يلي: ف "الجابري" يرجع الأزمة إلى تداخل الأزمنة الثقافية في فكر المثقف العربي، أي أنه أصبح يفكر بمرجعيتين ثقافيتين مختلفتين في آن معا، إضافة إلى غياب الروح النقدية في العقل العربي، أما "إدوارد سعيد" فقد أرجع الأزمة إلى كون المشاريع الغربية التي استعارها المثقفون العرب تختلف في جوهرها ومضمونها عن طبيعة وهوية المجتمع العربي، فكان فشل هذه المشاريع دليل على إخفاق هؤلاء المثقفين بالإضافة إلى تراجعهم عن سلطاتهم الأخلاقية من أجل تحقيق أغراضهم الشخصية. أما "محمد أركون" فقد أرجع هو الآخر أزمة المثقفين إلى ضعف وعي الجمهور العام للمشاريع التي قدمها المثقفون وعدم قدرتهم على تلقيها، والتواصل مع المثقفين فيما أرادوا بلوغه، إضافة إلى مشكلة النخبوية التي وقعوا فيها، واتجاههم إلى التخصصات الضيقة التي أبعدتهم عن مشاكل مجتمعاتهم، وتمسكهم بمعتقداتهم والانغلاق عليها ما أدى إلى انحصار تفكيرهم داخل سياج دوغماتي مغلق.

إلا أن هناك إجماعا بينهم في إرجاع أزمة المثقفين إلى سبب رئيسي، هو تلك المنظومة المجتمعية المتأزمة، فالمجتمعات المأزومة تنتج مثقفين متأزمين، لتبقى التربة الخصبة والمنبع الصافي

أو المنهل النقي للمعرفة هي مفتاح نمو الأفكار، وسط بيئة ملائمة تحتضنها، ألا إنها الجماهير العريضة من الشعوب العربية، الواجب تفعيل أدائها على الأقل من خلال إسهامها في البناء مجتمعاتها وتهيئتها لتلقي خبرات ومعارف أولئك المثقفين، لتصبح معادلة الأزمة تجمع المثقف والشعب والسلطة.

قائمة المصادر والمراجع:

1– أركون، م .(1998) .الفكر الإسلامي)نقد واجتهاد . (بيروت :دار الساقي.

2– الإسلامي، م .أ .(1986) .تاريخية الفكر العربي الإسلامي .بيروت :مركز الإنماء القومي .

3– الجابري، م . ع .(1985) .تكوين العقل العربي .(éd. 2)بيروت :دار الطليعة للطباعة والنشر.

4– الجابري، م . ع .(1997) .الديمقراطية وحقوق الإنسان .بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية.

5– اللطيف، ك . ع .(1999) .الحداثة والتاريخ)حوار نقدي مع بعض أسئلة الفكر العربي .(بيروت :الشرق.

6– جرار، ص.(s.d.) .

7– حرب، ع .(2004) .أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي .بيروت : المركز الثقافي العربي.

8– سعيد، إ .(2006) .المثقف و السلطة .القاهرة :رؤية للنشر و التوزيع .

9– شاهين، م .(2005) .إدوارد سعيد رؤية للأجيال .102بيروت :المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

10– صافي، أ .ص .(2002) .جذور أزمة المثقف في الوطن العربي .دمشق :دار الفكر.

11– عرار، خ .أ .(2016, 08 06) .الثقافة والمثقفون والحضارة Récupéré . sur http:// http://www.bettna.com.

12– نجدي ن, .(2005) .أثر الإستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد–حسن حنفي –عبد الله العروي .دار الفارابي.

13– وآخرون، م .ع .(1984) .الانتلجنسيا في الوطن المغرب العربي .éd)ط .(دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.

14– واليا، ش .(2006) .صدام ما بعد الحداثة ادوارد سعيد وتدوين التاريخ، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة .القاهرة :رؤية للنشر والتوزيع.